ابداع الروائي الأكاديمي معمر حجيج بين ضفتي السرد التاريخي والغواية الفانتاستيكية (معزوفات العبور أنموذجاً)

أ.فريدة بعيرة

جامعة باتنة

bairafarida@gmail.com

الملخص: تحاول هذه الدراسة استنطاق رواية" معزوفات العبور"للروائي الجزائري الدكتور معمر حجيج كأنموذج للرواية الجزائرية المحمّلة بحمولات تاريخية وثقافيّة؛ تنم عن وعي إبداعي وتميّز للروائي معمر حجيج، وهذاناتج عن ترسب المعارف والخبرات الأكاديميّة منها والإبداعية لديه، وهدفنا الأساس من هذه القراءة هو تفكيك المحاور التي تتبنى عليها هذه الرواية وبالتحديد محوري السرد التاريخي ومحور توظيف الموروث الثقافي المحاكي للهويّة الجزائرية بكلّ أبعادها وخصوصياتها.

الكلمات المفتاحية: ابداع، رواية، سرد ، تاريخ.

Abstract :

This study attempts to explore the novel of the passage of the novelist Muammar Hadjidj as a model of the Algerian novel which loaded with his torical and cultural loads.It reflects the creative awareness and excellence of the novelist * Muammar hadjij*whichis the result of the deposition of academic and creative knowledge and experiences.Our main objective of this studies to dismantle the axes on wich this novel is based. namely the centerpiece of the historical yard the center of emplaying the cultural heritage That imitates the Algerian identity in all its dimension and peculiarities.

Keywords : Créativité, roman, récit, histoire.

Résumé :

Cette étude tente de faire parler le roman (les mélodies de passage) du grand romancier algérien Meammar Hadjij comme un modelé du roman algérien qui est charge des recharges historiques et culturelles .Cela prouve une conscience et délicates se concernant la créativité du romancier. Aussi il est dû au dépôt des connaissances et aux expériences académiques et créatif de ce romancier, l'objectif de cette lecture est de repère les axes sur les quels est bâti ce roman. En particulier l'axe historique et l'axe narratif et celui concernant l'utilisation du hérité culturel qui imite l'identité algérienne avec toutes ses dimension et ses caractéristiques.

Mots-clés: Créativité, roman, récit, histoire,

توطئة:

تمثل رواية معزوفات العبور للروائي الجزائري الدكتور **معمر حجيج** واحدة من المعزوفات السردية الجزائرية الزاخرة بتعددية اجناسية جمع فيها المبدع بين السردي الملحمي والدرامي، التاريخي والبعد الفلسفي، أضف إلى ذلك الموروث الشعبي،والعجائبي الغرائبي المرادف لما يعرف **بالفانتاستيك**، هذا الأخير الذي يعتبر مجالا خصباً للتشكيل الروائي مؤكدا على غنى التخييل في السرد الروائي، وامكاناته الواسعة وما يعد به من مجازفات دلالية وشكلية، محاكيا في ذلك زئبقية خطاب الحداثة وما بعد الحداثة في الخطاب الروائي، وذلكلكونه الجنس الأدبي الأكثر مرونة وتجسيداً للوقائع الحياتية للفرد والمجتمع بتصوير تخييلي يحفظ لها صبغتها الابداعية.

تؤكد لنا رواية **معزوفات العبور** أنّ تعددية الأشكال واختلافها في الرواية ليست ترفاً فكريا أفرزته رغبات طارئة حسب تعبير الناقد المغربي **شعيب حليفي**؛ بل حتمية متمخضة عن تعقيد وتعقد الواقع وتعدديته مما فتح المجال واسعاً أمام هذه الرواية وغيرها من الروايات العربية والجزائرية كي تتعدد زوايا اهتمامها، ومعالجتها لتيمات مختلفة وزّعها الروائي حجيج في هذه الرواية على معزوفات عبور متعددة يمثل فيها **السرد التاريخي، والغواية الفانتاستيكية**، قاسما

مشتركاً بين كلّ معزوفات العبور هذه، ولعل أهم ما يلفت انتباه القارئ المهتم والسابر لأغوار هذه الرواية هو محاولة الروائي سرد هوية تاريخية جزائرية من خلال ابداع سردي يتراوح بين ضفتي السرد التاريخي، والغواية الفانتاستيكيّة، وبما أنّ ورقتنا البحثية هذه تتمحور حول تيمتين أساسيتين أولاهما **السرد التاريخي** أو بالأحرى توظيف التاريخ في الرواية عموما وفي رواية معزوفات العبور على وجه الخصوص، وثانيها **الغواية الفانتاستيكية** في هذه الرواية فقد ارتأينا بداية أن نتوقف عند أهم المفاهيم والأفكار التي تتبادر إلى ذهن المتلقي حول هاتين التيمتين و البداية تكون مع اشتغال وتوظيف التاريخ في هذه الرواية و هل هيّ رواية تاريخية أم أنّها رواية معاصرة وظفت التاريخ وفقاً لمتطلبات النص الروائي، إضافة لتوقفنا قبل ذلك عند تيمة الهوية وما يتعلق بها من مفاهيم وخصوصيات نظراً لأن كلا المحورين متعلق بهذه التيمة " **الهويّة** " سواء الجمعية منها أم الفردية.

الهويّة التاريخية الجزائرية من الترسب التاريخي إلى التعدديّة الثقافية:

حظيت تيمة الهوية في الخطاب المعاصر بأهميّة بالغة فيما يخص كلّ ما يتعلق بها من مفاهيم ومرجعيات تتبني عليها، فسعت الدراسات النقدية المعاصرة لبلورتها نظرا لطبيعتها الزئبقية والمتماهية مع بعض المفاهيم وتقاطعها مع البعض الآخر من ذلك الانتماء، فالهويّة جزء من كلّ هوّ الانتماء وهيّ ـ الهويّة ـ " احساس الأنا بالانتماء سواء أكان هذا الأنا فرديّا أم جمعيّا، فإنّه لا يتحدّد إلاّ من خلال الآخر، فلوعدنا إلى فلسفات الأنا، تلك التي وسمت في فلسفة الحداثة بفلسفة الكوجيتو(أي الذات أو الأنا المفكر) سنلاحظ بأنّها كلّها تخلص إلى إحدى نتيجتين: إمّا الاعتراف بالغيرية، واستدخالها ضمن كينونة الأنا، وربط الأنا بها، وإمّا السقوط في الأنا المتوحّد بما تفيده من توحد، و انغلاق"[1]. ويتضح لنا من خلال تأمّل الموروث الثقافي الجزائري باختلاف أطيافه وتنوّع خصوصيّاته من منطقة لأخرى سواءأ كان ماديا أم معنويا أنّه يحمل بين طيّاته ميزات وقواسم مشتركة قد يتمكن ل المرء من إدراكها حينا

[1]: حاتم الورفلي: بول ريكور الهوية والسرد، دار التنوير للطباعة والنشر، والتوزيع، تونس، ط1، 2009، ص 26.

ويتمنع عنه ذلك أحايين أخرى ما يؤكّد أنّ "بين الهويّة الفرديّة والجمعيّة علاقات متراصة قد تتناقض، وقد تتعاضد لترسم خارطة الهويّة بإحداثيات شخصيّة وجماعيّة"[2] ، فالذات الفرديّة هيّ الأساس لتكوين وتخلق حس الانتماء، والاتحاد والترابط في المجتمع/ المجموعة الواحدة ذلك لأنّها (الذات الفرديّة) هيّ النواة الأساس لتكوين الذات الجمعيّة، أضف إلى ذلك أنّ هويّة الذات تتحقق" عبر تحولات تحكم الفرد في وجوده البسيكولوجي، وكذلك الاجتماعي حينما يعاين ذاته ليس على نحو نهائي، وإنما تقص، وبحث مستمر على استقلاليته علّه يظفر ببعضها. ما يعني أنّ الهويّة هيّ تقاطع بسيكولوجي (همّها الرغبة في الوجود) وسوسيولوجي (همها التموضع داخل الاجتماع)[3] ؛ فالذّات الفرديّة تستمدّ قيمتها، ومبادءها من مجتمعها، تحب ما يحب وتكره ما يكره، لأنّ هذا هوّ السبيل الوحيد لتحقيق هويّتها" ادراك هذه الذات الفرديّة"، وبذلك تعزيز انتمائها لأنّ الهويّة جزء من كلّ هوّ الانتماء. وكما يرى **جيمس كوت، وشارلز ليفين** فإنّ الهويّة هيّ الطريقة التي يمكن من خلالها أن يحدّد الأفراد أنفسهم أعضاء في مجموعة ما مثل الأمّة الطبقة الاجتماعيّة، الثقافيّة، العرق، الجنس، في حين أنّ الثقافة هيّ ذلك المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقيدة، الفنّ والأخلاق، القانون والعادات والتقاليد، وعادات أخرى يكتسبها الانسان بصفته عضوا في المجتمع؛ وبما أنّ الهوّية الجماعية تستدعي في تعريفها ضرورة إيجاد قيّم ومعايير مشتركة لأعضاء الجماعة وصياغة علاقتهم بتقاليدهم، والقدرة على إنجاز أهداف مشتركة، وتعبيرات تضمن البقاء لأعضاء الجماعة ومقومات وجودهم الفاعل والحيوي ضمنها حتى إن اختلفت في بعضها[4]، فإنّه وفي السياق نفسه وجب علينا أن نفتح قوساً لنؤكّد أنّ الهويّة عموما والهويّة الجزائرية على وجه الخصوص ووفقاً لرؤية سوسيو- تاريخيّة ليست معطى ثابتا إذ يظل التغيّر والتحول لصيقاً بها وذلك كنتيجة حتميّة لما يتعرّض له أفراد المجتمع بمختلف فئاته وأطيافه من تأثيرات خارجيّة تساهم في قولبة هوياتهم واعادة انتاجها بفعل التأثير والاغراء الذي تمارسه بعض تلك المؤثرات

[2]: حاتم الورفلي : المرجع السابق: ص 33.

[3]: ينظر المرجع نفسه: ص 34.

[4]: المرجع السابق ص 42.

الكونية الجديدة التي لازالت تحاول خلخلت مقومات الهوية الجزائرية بغية طمسها أو تشويهها على أقل تقدير رغم توافر المحددات الثلاث للهوية الجزائرية المتمثلة في الدين الاسلامي واللغة العربية والأصل الأمازيغي، ولأنّ الثقافة الوافدة لها تأثير فعال على الفرد نظراً لتداعيات العصر فإنه ـ الفرد الجزائري ـ

أصبح يشعر في غالب الأحيان بأنّ هويته المأزومة لا تسعفه ، وهذا ما يجعله يلجأ في الغالب نحو ردّ فعل انفعالي متطرف سواء بالقبول التام لتلك المؤثرات وتبنيها " الذوبان والانصهار في الآخر" أم برفضها التام والتقوقع على ثوابته التي يخشى عليها من كلّ جديد، ومن كلّ ما هو وافد ما يخلق عنده هشاشة تجعله عاجزا عن مساءلة الآخر في موضع الندية في هذه الحالة[5]، ورغم هذه المفارقات إلا أن الفرد الجزائري عموما والمثقف منه على وجه الخصوص تفطّن ومنذ البداية بأنّ هويّته تخضع لرهانات وتحديات تتطلب منه مقاومة فكرية ثقافية تمثل استمرارية للمقاومة الاستعمارية الرامية إلى طمس الهوية الجزائرية بكل أبعادها التاريخية منها والثقافية وكذا الدينية فنهج سبيل المقاومة الثقافية وهذا هو السبيل الوحيد لـ " استعادة الذات من الاغتراب الأيديولوجي، لأن ذلك يتيح للذات اكتشاف كينونتها التي ظلت مغيبة في تجربة الماضي، بحيث تعيش الذات تجربة انبثاق جديد وولادة جديدة" [6]، و قبل تفكيكنا شفرات واحد من النماذج الأدبية المنضوية تحت لواء الخطاب الروائي المكتوبة بقلم علم من أعلام الأدب الجزائري المبدع الأكاديمي الدكتور معمر حجيج هذا المتن الحامل بين طياته كلّ معالم المقاومة الثقافية المتجلّية مرّة في طبيعة السرد التاريخي المحمّل بالكثير من الوقائع التاريخية الحقيقية مرة والتخييلية الابداعية مرة أخرى هذا من جهة، ومن جهة أخرى اشعاع جماليات توظيف الموروث الثقافي الفانتاستيكي والذي صبغ الرواية بصبغة فنية لا تتأت إلاّ لمتمكن ترسّبت في مخيلته عصارة تاريخية و ثقافية، انصهرت فأخرجت لنا رواية متكاملة تجمع بين الفانتاستيكي والتاريخي بصورة متميزة لابد من التوقف عند مفاهيم مفصلية

[5]: ينظر: عمار بن طوبال: الهوية المأزومة في الخطاب الثقافي الجزائري، ملحق الأثر الثقافي، نشر بتاريخ، 22- 04- 2009.

[6]: محمد بوعزة : سرديات ثقافية من سياسات الهوية السردية إلى سياسات الاختلاف، منشورات الاختلاف، دار الأمان الرباط، ط1، 2014، ص95.

قبل الولوج للمتن الروائي ومن هذه المفاهيم، **السرد التاريخي** " **الخطاب التاريخي**"، **الفانتاستيكية، أضف إلى الموروث والخصوصية الثقافية في الخطاب الروائي.**

السرد بين التاريخي والروائي:

من المتعارف عليه أنّ الرواية الأدبية هيّ عمل يكتب جماعيا ليقرأ فرديا (بخلاف الشعر الذي يكتب فرديا ليلقى على المجموعة)، إذ أنّها تعبر كما أسلفنا عن إيقاع العصر وقيمه وتوجهاته، لأنها الجنس الأكثر مرونة وتجسيداً لوقائع الحياة اليومية للفرد والمجتمع فهي بذلك ستحمل لا محالة أعباء صنع المستقبل عبر تجديد مقارباتها الفنية والمضمونية بقطع النظر عن أدبيات التأثير والتأثر [7]، ولعل أوّل ما يستشفه المتلقي من خلال قراءته لهذه الرواية الغنية بحمولاتها الدلالية والأيديولوجية هو استحضار الروائي معمر حجيج للمرجعيّة الثقافية، لأنّ السرد عند هذا الروائي " أكبر من مجرد مظهر لفظي للخطاب بل هو تشكيل عالم متخيل، تحاك ضمنه إستراتيجيات التمثيل، وصور الذات عن ماضيها وكينونتها وتندغم فيه أهواء، وتحيزات، وافتراضات تكتسب طبيعة البديهيات ونزوعات وتكوينات عقائدية يصوغها الحاضر بتعقيداته بقدر ما يصوغها الماضي بمتجلياته وخفاياه.. كما يصوغها بقوة وفعالية خاصتين، فهم الحاضر للماضي وأنهاج تأويله له"[8]، وهذه العبارة الأخيرة ـ فهم الحاضر للماضي وأنهاج تأويله له ـ حسب **تعبير كمال أبو ديب** تحيلنا إلى فكرة تعاضد التاريخي بالثقافي لأنّ " الثقافة لا تنفصل عن التاريخ بل هيّ في وجه من الوجوه تعبير عنه وربما هي أكثر ما يستمر، ويبقى من التاريخ"[9]، وذلك لأنّ السيرورة التاريخية تشكل لنا موروثا تاريخيا يتعاضد مع الموروث الثقافي فيشكل لنا كلا متكاملا هو الهوية؛ وبما أننا بصدد الحديث عن الخطاب " السرد

[7]: ينظر صابر الحباشة: غواية السرد قراءات في الرواية العربية، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية دمشق(د، ط)، 2010، ص10.

[8]: كمال أبو ديب من مقدمته لكتاب: الثقافة والامبريالية، لإدوارد سعيد، دار الآداب ط1، 1997، ص16.

[9]: أحمد فتال: بنية الثقافة الجزائرية وأسسها، عرض عام ، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة الجزائر العدد 19، أفريل2009، 111.

التاريخي والسرد الروائي فلابد من الاقرار بأنّ الخطاب مهما كانت مرجعيته يظلّ" خطابا سرديا بالدرجة الأولى، ومهما بالغنا في اسباغ البعد المرجعي عليه فإنه يظل خطابا منجزا في مقام محدد تتحكم فيه اعتبارات شتى توجهه وتضيء مسالك قراءته. وكذا الشأن بالنسبة للرواية، فهي و إن بدت لنا خطابا تخييليا، لا تنقطع صلتها بالمرجع انقطاعا تاما"[10]، فالسرد لا يمثل مجرد خاصية نصية مكونة للخطاب الأدبي، بل يمثل الشرط الضروري والحتمي للغة والمعنى والمعرفة، معرفة الذات والعالم. في هذا السياق" يتحدث الناقد فريديريك جيمسون عن العمليات المشكلة للسردية، ويعتبرها الوظيفة المركزية للذهن الانساني. هذه الطبيعة الكلية للسرد تستدعي تقديم تصور معرفي يدرج السرد ضمن أنساق الثقافية والمتخيل والتاريخ، ويكشف ترابطاته الجدلية ببنيات القوة والرغبة"[11]، ولهذا صارت الخطابات الابداعية عموما والخطاب الروائي على وجه الخصوص تنبني على حمولات تاريخية مركزة تجعل من التاريخ مادة طيعة ومخزونا لاينفد لرسم مسار أيديولوجي وابداعي يختلف من روائي لآخر، إذ " بإمكان الرواية أن تستقبل مواد تاريخية لتشييد كيان سردي دال فينا، وبإمكان التاريخ أن يستفيد ما يحتاجه من مواد روائية لتشييد كيان سردي دال تاريخيا"[12]، وهذا ما نجد أن الروائي حجيج تفطن له واستغله أحسن استغلال فقد وظّف الموروث التاريخي في رواية معزوفات العبور توظيفا يؤكد أن التاريخ هوّ السمة الأساسية التي توسم بها الرواية العربية الجديدة عموما والرواية الجزائرية على وجه الخصوص، ولكن رغم توظيف الروائي المعاصر للتاريخ في أعماله الروائية ولدرجة كبيرة وجب علينا أن نوضّح بأنه ومهما كانت درجة استعانته بالتاريخ

[10]: محمد القاضي : الرواية والتاريخ ـ دراسات في تخييل المرجعي، دار المعرفة للنشر، تونس، ط1، 2008، ص 24.

[11]: محمد بوعزة :سرديات ثقافية من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، منشورات الاختلاف، دار الأمان الرباط، ط1، 2014، ص34.

[12]: عبد السلام أقلمون: الرواية والتاريخ ـ سلطان الحكاية وحكاية السلطان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ـ لبنان، ط1، 2010، ص102.

في أعماله الابداعية إلا أنه ليس مؤرخا وفي المقابل مهما ارتقى المؤرخ بأسلوبه الفني في تأريخ الأحداث فإنه ليس بروائي " فإذا كان المؤرخ يلتزم الحقيقة، فيسرد الأحداث كما شاهدها أو كما رويت له، فإن الروائي يعتمد التخييل في سرد الأحداث، فيحذف، ويضيف، ويقدم ويؤخر. حتى الروائي الذي يكتب الرواية التاريخية ليس مؤرخا، ولو أراد ذلك لالتفت إلى كتابة التاريخ على طريقة المؤرخين. إن ما يفعله الروائي الذي يكتب رواية تاريخية هو تقديم أحداث التاريخ في قالب قصصي، أي أنه لا يؤرخ، بل يتخذ التاريخ موضوعا للسرد، ويخضع المادة التاريخية لطبيعة الفن الروائي"[13]، وفي هذا الصدد يرى الدكتور مصطفى الكيلاني أنّ الرواية هي سرد المكان والكيان، ورسم طوبوغرافي في متخيل لوعي اللحظة الكاتبة والفضاء بوقائعه وأشيائه وتفاصيله، وكتابة للتاريخ الفردي والجمعي بواسطة المخيال السردي.

وبما أنّ الشخصية من أهم البنى السردية في جنس الرواية ذلك لأنّها البؤرة التي تتمحور حولها أحداثها فهي الفاعل الأساسي في هذا الجنس الابداعي مما جعل الروائيين يتفننون في رسمها وكل ما تعلّق بها من جزئيات مهما كانت دقتها، موظفين في ذلك خبراتهم المعرفية من أجل عرض شخصيات تمتلك قابلية الرسوخ في ثقافة الانسان، فقد كان الروائيون يشعرون أنّ في الشخصية دائما شيئا شيقا، ويحكم النقاد على أنّ نجاح توظيف الشخصية أو إخفاقها لدى الروائيين، تبعا لنجاحهم أو إخفاقهم في توظيفها في التعبير الجمالي عن مقاصدهم الروائية[14]، وإذا تأملنا رواية معزوفات العبور للروائي معمر حجيج نجد أنّها حشدت عددا كبيرا من الشخصيات من مختلف الفئات العمرية إضافة إلى أنّها أيقونات لخلفيات أيديولوجيّة فهي مكثّفة بطريقة تجعلنا نتوقف مندهشين أمام هذا التعدد النوعي الذي وظّفه الروائي حجيج ولعلّ من أهم الشخصيات الرمزية التاريخية الأساسية في هذه الرواية شخصيّة **(بوحة النية)** وهيّ شخصية محورية و رمزية في آن؛ وتتجلى رمزية هذه الشخصية في كونها تختزل نضال

[13]: محمد رياض وتار: توظيف التراث في الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د، ط)، 2002، ص 102.

[14]: ينظر: سمر روحي الفيصل، الرواية العربية البناء والرؤيا، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د،ط)، 2003، ص 95.

واستماتة الأشاوس من أبناء هذا الوطن المفدى، وبقائهم على العهد والوعد، وسنركز على دراسة هذه الشخصية من خلال **معزوفة العبور إلى المقام السابع**؛ حيث قدم الروائي معمر حجيج هذه الشخصية بواسطة الراوي مستخدما ضمير الغائب، مستهلا فعل السرد بفعل ماض أتبعه بوصف مستفيض لهذه الشخصية الرمز" **كانت شخصية (بوحة النية) المحبوبة، وروحه الخفيفة، وحججه المقنعة أهلته لأن يقوم بفتح سوق وطنية لتصدير الثورة لكل العقول النائمة، والنفوس اليائسة، والأرواح الباردة، وازدهرت تجارته، وكثر زبناؤه من كل الأعمار، والأصناف، وكانت روحه في غاية السعادة حين يحس بنجاحه في ترويج بضاعته من ماركة ثورية جزائرية بمئة المئة**[15]، فبوحة النية من خلال هذا الوصف المستفيض يمثل شخصية الرجل الجزائري الشهم الذي لا يتخل عن مبادئه من أجل مصالحه الشخصية مهما كان ثمن هذا التمسك بالقضية؛ إذ أن شخصية بوحة النية شهدت وعانت من أشدّ أنواع التعذيب والتنكيل النفسي والجسدي، خصوصا بعد اعتقالاته التي كانت تعقب اخفاق الجلادين في القبض على المجاهدين الأشاوس فيصبون جام حقدهم على هذه الشخصية " بوحة النية" التي كانت تعاني من نكبات صحيّة متلاحقة حالت بينه وبين مشاركته المجاهدين نضالهم بالسلاح فأخذ على عاتقه شحذ الهمم من خلال امتلاكه لقوة اقناع تجعل النفوس نفوس المجاهدين تأبى الذل والهوان، وهو ما تسبب في الزج به في السجن كلّ مرةّ؛ ورغم مرارة الاعتقال إلاّ أن بوحة النية "كان يشتاق للاعتقال ليلتقي برفقاء النضال"[16]، ومن هنا يتضح لنا أنه في الرواية العربية المعاصرة يستوجب في أغلب الأحيان أن تحيا الأفكار في الشخصيات وسط مجموعة من القيم الانسانية التي يظهر فيها الوعي الفردي متفاعلا مع الوعي العام، في مظهر من مظاهر التفاعل، حسب ما يهدف إليه الكاتب في نظرته لهذه القيم، وفي أغراضه الانسانية، ولا مناص من اتساق هذه الأغراض مع الغرض الفني السردي"[17]، وهذه الخصيصة

[15]: معمر حجيج : معزوفات العبور، دار قانة للنشر والتوزيع باتنة الجزائر، ط1، 2016، ص 116.
[16]: المصدر نفسه: ص117.

[17]: محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار النهضة مصر القاهرة ــ مصر - ط1 2001، (ص ص)،(526- 527).

الأساسية التي تتبنى عليها هذه الرواية معزوفات العبور وكأنّنا بالروائي معمر حجيج يحيلنا من خلال الحمولات الدلالية لهذا العنوان للعبور إلى التاريخ العميق لاستنطاق مكنوناته والبحث في المسكوت عنه في رحلة زمنية تاريخية؛ نرسو من خلالها على شاطئ الأمان الناتج عن تجاوزنا للأهداف والقيم الفردية إلى الأهداف والقيم الجمعية التي تؤكد لنا أن الذات الفردية تستمد قيمتها ومبادئها من مجتمعها، ما يستلزم أن تحب ما يحب وتكره ما يكره؛ لأن هذا هو السبيل الوحيد لتحقيق هويتها، وبذلك فقط تعزز انتمائها لأن الهوية جزء من كل هو الانتماء، فالتضحية التي قدمها بوحة النية في سبيل الثبات على كلمة الحق كانت باهظة لكن ثمن الوطن كان أبهظ وهذا عزاء **بوحة النية**، وقد اعتمد الروائي حجيج على تقنية الحوار الخارجي الديالوج التي تمثل الطابع الغالب على النص الروائي، ليأخذ الحوار في كلّ مرة منحاه الخاص فيكون مرة حوارا محملا بحمولات ايجابية ومرة حوارا محملا بتصادم في الرؤى والخلفيات الأيديولوجية مثلما هو الحال بالنسبة للحوار بين بوحة النية وكبير الجلادين بعدما أمر الجلاد بالتنكيل ببوحة النية مما استفزه وجعله يبصق في وجهه وهو يواصل شتمه..

" قل لمحمدك أن يحضر الآن ليأخذك منا، وادعو ربك الذي تعبده أن يخلصك من بين أيدينا..... سأبقى مجاهدا على الرغم من أنوفكم مادمت أدافع عن حريتي، وحرية شعبي. هكذا سيفتخر بي تاريخ وطني. أما أنتم، فماذا سيقول عنكم أيها الجلادون الفاقدون لإنسانيتكم؟..."[18]، بين طيات هذا الحوار المطول بين الجلاد والضحيّة أيقونات تحيلنا على الفقد بشتى صنوفه يستدعى تعايش كل طرف مع وضعه الراهن المفوض فرضا. ولعل أهم ما نلاحظه في هذه الشخصية هو تركيز الروائي على الجزئيات الدقيقة من الشخصية **بوحة النية** وذلك من خلال تقمصه ـ الروائي ـ دور الراوي العليم العالم بكل الجزئيات مهما كانت دقتها، ليحيل الروائي دور السرد لشخصية بوحة النية والسجين اليتيم **على البوغزالي** ليسرد لزملائهما المساجين واحدة من القصص التي كانا يحاولان من خلالها شحذ همم المعتقلين ببطولات أبناء هذا الوطن ألا وهي قصّة **سبع الدوار وابنته فاطمة**، وما لقيته هذه العائلة من مطاردة وقهر من ابن الرومية، ومن كان معه ممن باعوا ذممهم، ومن هنا حق لنا القول بأنّ التاريخ يكتب

[18]: المصدر السابق، (ص، ص)، (117، 118).

نفسه بنفسه في مثل هكذا حالات إذ "لا تختزن الذاكرة الجماعية ماضي الجماعة فحسب، بل تعيد تركيبه وتمكن من إعادة معايشته مرة أخرى، حيث تحول التاريخ الشخصي والجمعي إلى تاريخ معيش في الحاضر عبر أشيائه وفضاءاته وعبر استعمال الفضاء الخاص والتفاعل معه، كالتفاعل عبر الحي والجيرة والمدينة والأصدقاء والفضاءات المشتركة، غير أن هذا الماضي' على غرار الذكريات التي تحتفظ بها الذاكرة، لا يكف يقدم وسائل ضرورية لإعادة انتاجها"[19]، فالروائي معمر في هذه الرواية يعود بالقارئ مرارا وتكرارا لماضي الوطن وتاريخ وفقا لتقنية العودة إلى الوراء فلاش باك" الاسترجاعات الداخلية منها والخارجية مما يكسر رتابة السرد في الخطاب الروائي ويبعث القارئ على تتبع حيثيات الأحداث وتنقلات الشخصيات الورقية في النص بغرض " تسخير هذه الذات الفاعلة لإنجاز الحدث، وللتعبير عن فلسفة معينة من فلسفات الحياة، وعن نظرة مخصوصة إلى الزمن، النظرة التي تأتي متساوقة مع طبيعتها المادية والنفسية، وطبيعة وعيها بالواقع النصي الذي تحيا فيه"[20]، وهذا ما يحيلنا إلى تدبر تاريخ يتمثل في ذاكرة ملتحمة بالهوية على حد تعبير د **أحمد فرشوخ** والذي تمثل فيها الشخصية الفاعل الأساسي، هذا الالتحام بالهوية يكون من خلال استثمار العلامات الخيالية الكبرى في المجتمع. ذلك أن المجتمعات، في النهاية، سرديات تنتمي لذاكرة جماعية تدبر المتخيل الجماعي من جهة حبكته وسيرورته ومغزاه[21].

أماّ فيما يخص المحور الثاني أو التيمة الثانية التي يتمحور حولها موضوع الدراسة فهي:

الخصيصة الفانتاستيكيّة ومدى اشعاعها في النص:

إن توظيف الروائي معمر حجيج للموروث الثقافي والشعبي بكلّ جزئياته يقرب النص من القارئ أكثر فأكثر ويستدرجه ـ القارئ ـ لخلق علاقة وطيدة بينه وبين النص وذلك نظراً لطابع

[19]: عبد الله شطاح: نرجسية بلا ضفاف، التخييل الذاتي في أدب واسيني الأعرج، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ط1، 2012،ص138.

[20]: عبد الله بن صفية: المتخيل التاريخي في الرواية الجزائرية جدلية المرجع والمنجز السردي، أطروحة دكتوراه علوم، جامعة باتنة 1، 2016-2017، ص 81.

[21]: ينظر، أحمد فرشوخ : تأويل النص الروائي السرد بين الثقافة والنسق، مكتبة السلام الجديدة ، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، ط 1، 2006، (ص، ص)، 171،170).

الخصوصية المحافظ بصورة أو بأخرى على تجليات الهوية الجزائرية في الكتابة الروائية، وكذا مقومات ثقافتها المستندة للتراكمات الثقافية والفكرية وعلاوة على ذلك فإن الطابع العجائبي الغرائبي حاضر وبقوة في هذا النص وهذا ولا شك مظهر من مظاهر التجريب في الرواية العربية، إذ أنّ من بين الممارسات التجريبية في الرواية العربية اعتمادها على مزج الخطابين العجائبي الأسطوري مع الواقعي، ولعل هذا يستعيد لنا ما أشار إليه البلغاري الفرنسي تودوروف الذي ألف كتابه المهم حول الأدب العجائبي، وعرف العجائبي ووضع قوانين عوالمه ويصفه بكونه أحداثا تبدو فوق طبيعية، ولعل من أبرز أيقونات الأدب العجائبي على الاطلاق حكايات ألف ليلة وليلة[22] الموظفة في الأدب الحديث والمعاصر بصورة موسعة جدا نظرا لطبيعة الحكايا الزئبقية.

إن الفانتاستيك أو العجائبي مثلما يحلو للبعض تسميته هي تداخل الخيال والواقع فيصبحان وجهان لعملة واحدة، وذلك تجاوزا للسببية وتوظيفا للامتساخ والتحويل والتشويه، ولعبة المرئي و اللامرئي الواقعي و اللاواقعي على حد تعبير **حميد لحميداني**، وهنا يقع القارئ بين عالمين متناقضين عالم الحقيقة الحسية وعالم التصور والوهم والتخييل المفرط.

فالمتأمل للإبداع الروائي الجزائري عموما وابداعات **الروائي معمر حجيج** على وجه الخصوص يجد أن السمة الأساسية والخاصة في كتاباته هي توظيف الموروث بمختلف مكوناته ومشاربه، وتجدر بنا الاشارة إلى أن المبدع الجزائري ومنذ الارهاصات الأولى لتقنيات التجريب في الرواية العربية سعى بكل ما أوتي من ابداع في توظيف الموروث الثقافي والتاريخي والشعبي الجزائري في ابداعه وهذا ليس من باب الترف الفكري وإنما من باب المحافظة على الموروث الجزائري من جهة ومن باب تعريف الآخر بمرجعيات هذه الثقافة ومكتسباتها من جهة أخرى، فقد صرح **الطاهر وطار** في حوار معه بانتمائه للتراث واتكاء أعماله على الموروث التراثي وتوظيفها للشخصيات التاريخية والأسطورية وقولبتها لتقديمها للقارئ في ثوب جديد، يقول: لا غرابة أن أعيدها، لم لا؟ وأنا قلت في الأول أنني التراث،

[22]: ينظر معجب العدواني: الموروث وصناعة الرواية مؤثرات وتمثلات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2013، ص65.

ولكنني لا أذهب منفيا وباحثا عنه لأستقي منه حاجات أستفز بها القارئ"[23]، ويؤكد **عبد الحميد بورايو** في مقال له أنّ أغلب الجزائريين قد استلهموا من التراث الشعبي أعمالهم الابداعية ونذكر منها على سبيل الحصر أعمال الرائد عبد الحميد بن هدوقة المحملة بزخم ثقافي متميز في أعماله الروائية، أضف إلى ذلك أن الجزائريين قطعوا شوطا كبيرا في توظيف الموروث الشعبي الجزائري لدرجة توظيفهم اللهجات المحلية واقحامها في المتن الروائي من ذلك توظيف فضيلة الفاروق للهجة الشاوية في روايتها مزاج مراهقة.

ويمكن أن نعتبر **البعد الفانتاستيكي** الموظف في هذه الرواية بمثابة نص مواز قام الروائي حجيج من خلاله بصبغ روايته ببعد جمالي إغرائي استقطب من خلاله القارئ لتتبع أحداث الرواية فنجح في ابعاد روايته عن النمطية والسردية الجافة التي تحيط بالروايات التي تجعل من التاريخ مادة طيعة ومحورا وغاية في الوقت نفسه، ذلك لأنه خرق الثابت والراكد، وتكسر النمطية على مستوى النص الروائي، وهي رؤية ابداعية مشروعة ترفع من النص وتعطيه خصوصية فنية وابداعية لم تكن متوفرة في الرواية التقليدية، وقد سعى الروائي الدكتور معمر حجيج في هذه الرواية لتركيب العالم التخييلي بالواقعي، وذلك لتأثيث النص بما يحفظ له خصوصيته الثقافية، والهوياتية من خلال توظيفه للموروث بجمالية وبلغة تنم عن ثقافة المبدع ومعرفته لموروث الوطن خصوصا الموروث الانساني عموما وتتجلى هذه الخصيصة من خلال توظيفه للبعد العجائبي ورموزه، وتمثل معزوفة العبور إلى المقام الأول ومعزوفة العبور إلى المقام الثاني من بين أكثر معزوفات العبور التي وظفت هذا الجانب الفانتاستيكي وخاصة المعزوفة الثانية الموظفة للكثير من الرموز التي تجسد الصراع بين الخير والشر في إطار عدم تقبل الآخر من ذلك رمز الوحش الأزرق المتحول من ملاك تارة إلى شيطان يقول الروائي على لسان الراوي:" هكذا تسلل الوحش الأزرق في هيئة سحرية عجيبة غريبة بحث يصبح الواحد أربعة، يبدو ملاكا مرو، ومن رهبان عبدة الشيطان مرة ثانية، وملكا مرة ثالثة، وأميرة هيفاء في غاية الجمال مرة رابعة" ، شيوخ الحكمة السبعة : "..... وأوصلها إلى شيخ

[23]: سعيد سلام: التناص التراثي، الرواية الجزائرية أنموذجا، عالم الكتاب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2010،ص 372.

شيوخ الحكماء السبعة، فعرف ما لحق بقومه وبأمارتهم، وقرر الاستعداد للجهاد لدحر العدوان قبل فوات الأوان. كما قد وظف واحدا من أهم الرموز العجائبية الغرائبية العالمية والتي تشكل تراثا تاريخيا عالميا ألا وهو رمز شهرزاد وشهريار" ... وستخدر بها الأمير كل ليلة مثلما كانت تسجن شهرزاد شهريارفي قفص حكاياتها..."[24]

أضف إلى ذلك **توظيفه لرمز العفريت والفانوس السحري لعلاء الدين، المرأة الساحرة** وغيرها من الرموز، ولعل وجه المزج بين الواقعي والتخييلي في هذه الرواية هو اقحام قصة الجزائر وتاريخها " موروثها التاريخي" ويتجلى لنا ذلك بوضوح من خلال اقحامه للشخصيات التاريخية الجزائرية على غرار **محمد بوخروبة" المعروف بهواري بومدين** " مع رفاقه.

وختام البوح:

أنّ هذا التوظيف المكثف للرموز الأساطير و كلّ ما تعلق بالأدب العجائبي الغرائبي ورموز تاريخية في هذا النص الروائي تؤكد حسب الدكتور محمود لطفي اليوسفي عن وجود تفاعل عضوي بين ما هو اجتماعي وما هو جمالي. والجمالي هاهنا ليس مجرد ترف فكري، إنّه التجسيد الفعلي لتلك الصيرورة التي ما تفتأ تتم بين مكائد الوعي ومكر التاريخ؛ بما يثبط شرط الحضور المادي للمجتمع ضمن فعالية التذكر، أي اشتغال الذاكرة الفردية في حضور الجماعة ذاتها، وهذا ما سعى الروائي معمر حجيج تأكيده من خلال تعبيره عن الذات الجمعية الجزائرية عن طريق الشخوص الروائية الموظفة في روايته، والتي جعلها أيقونات تحكي الهوية التاريخية الجزائرية كلّ شخصية من موقعها و حسب رمزيتها وإطارها السردي التي وضعها الروائي فيه؛ فكانت روايته " **معزوفات العبور**" بحق نصاً يجمع بين **السرد التاريخي والغواية الفنية الفانتاستيكية** بطريقة فريدة من نوعها تنم عن التميز الفكري والابداعي للروائي الأكاديمي **معمر حجيج.**

[24]: ينظر: المرجع نفسه، (ص، ص)، (23،31).

ثبت المصادر والمراجع:

المصادر:

معمر حجيج : معزوفات العبور، دار قانة للنشر والتوزيع باتنة، الجزائر، ط1، 2016.

المراجع :

1/ أحمد فتال: بنية الثقافة الجزائرية وأسسها، عرض عام، مجلة الثقافة وزارة الثقافة الجزائر، العدد 19، أفريل 2009.

2/ أحمد فرشوخ: تأويل النص الروائي بين السرد والثقافة والنسق، مكتبة السلام الجديدة، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، ط1، 2006.

3/ حاتم الورفلي: بول ريكور الهوية والسرد، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2009.

4/ سعيد سلام: التناص التراثي، الرواية الجزائرية أنموذجا، عالم الكتاب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2010.

5/ سمر روحي الفيصل: الرواية العربية البناء والرؤيا، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق(د، ط)، 2003.

6/ عبد السلام أقلمون: الرواية والتاريخ، سلطان الحكاية وحكاية السلطان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2010.

7/ صابر الحباشة: غواية السرد قراءات في الرواية العربية، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية، دمشق(د، ط)، 2010.

8/ عبد الله شطاح: نرجسية بلا ضفاف، التخييل الذاتي في أدب واسيني الأعرج، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ط1، 2012.

9/ عمار بن طوبال: الهوية المأزومة في الخطاب الثقافي الجزائري ملحق الأثر الثقافي، نشر بتاريخ: 22/ 2009/04.

10/ كمال أبو ديب: الثقافة والامبريالية، لإدوارد سعيد، دار الآداب، ط1، 1997.

11/ محمد القاضي: الرواية والتاريخ، دراسات في تخييل المرجعي، دار المعرفة للنشر، تونس ، ط1، 2008.

12/ محمد بوعزة: سرديات ثقافية من سياسات الهوية السردية إلى سياسات الاختلاف، منشورات الاختلاف، دار الأمان الرباط، ط1، 2014.

13/ محمد رياض وتار: توظيف التراث في الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق(د، ط)، 2002.

14/ محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار النهضة مصر، القاهرة، ط1، 2001.

15/ معجب العدواني: الموروث وصناعة الرواية مؤثرات وتمثلات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013.

المخطوطات:

16/ عبد الله بن صفية: المتخيل التاريخي في الرواية الجزائرية جدلية المرجع والمنجز السردي، أطروحة دكتوراه العلوم، جامعة باتنة 1، (2016– 2017).